إشارات عقدية في حق خير البرية

د. إسماعيل إبراهيم صخي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، الذي خلق الإنسان من طين، ونفخ فيه من روحه ففضله على كثير من العالمين، نحمده حمدا لا يُحَدُ ونشكره شكرا لا يُعَدُ، على ما أنعم علينا مما لا يتناوله منا الإحصاء والعد، وأزكى الصلاة وأنماها، وأتم السلام وأطيبه على رسولِه ومجتباه، وحبيبهِ الذي اصطفاه، سيدِنا ومولانا محمدٍ واسطةِ عقد العالمين، الذي أرسله الله بالهدى والنور المبين، رحمة للعالمين وهداية للطالبين، وأسوة للمؤمنين، وإماما للسالكين.

وبعد...

فان من المعلوم للخاص والعام أن الله تعالى قد جعل الإيمان بأنبيائه ورسله من الأصول، قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[٢] والإيمان بهم يعني الإيمان بما خصهم الله به من النبوة والرسالة، أما بشريتهم فهي ملحوظة لكل أحد، والإيمان بالخصوصية متفرع ومتوقف على معرفة ما خصهم الله به، إذ الإنسان لا يؤمن بما لا علم له به، والواجب في حقهم عليهم الصلاة والسلام، هو التصديق بنبوتهم على سبيل الإجمال، لان هذا المقدار كافٍ للأخذ عنهم والتأسي بهم.

أما نيل المراتب العالية، فكما يلزمه معرفة خاصة بالله تعالى، كذلك يلزمه معرفة خاصة برسله عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِم﴾ [٣] والإيمان المذكور في هذه الآية إيمان خاص، فمن المعلوم أن هذه المرتبة الإيمانية لم يبلغها جميع المؤمنين، مع أنهم مؤمنون بالله ورسله، ولهذا أكثرَ العلماءُ الخوضَ في هذا البحر الخضم، بغية معرفة حقه ﷺ فأداؤه، فعرفوا شيئا وغابت عنهم أشياء، فأدركوا أن الوقوف على حقيقة ما هو عليه أمر مستعص، حتى قال قائلهم:

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فيهِ أنهُ بَشَرٌ وأنه خَيْرُ خَلْقِ الله كلِّهِمِ[٤]

---

١ – سورة آل عمران:، الآية: ١٧٩.

٢ – سورة النساء، الآية: ١٣٦.

٣ – سورة الحديد، الآية: ١٩.

٤ – بردة المديح: للإمام شرف الدين أبي عبد الله محمد البوصيري، مط: الوسام – بغداد – ١٩٨٣م،: ص٨.

وهذه المعرفة وإن كانت تُصَنَّفُ على أنها من العقائد، إلا أنها ليس مما يجب على كل مؤمن، وهي غير لازمة للإيمان المنجي، لكنها عقائد أهل الخصوص، ومن هنا سمى الإمام الشعراني احد كتبه اليواقيت والجواهر في معرفة عقائد الأكابر، وهي ضرب من الفهم الدقيق، ولكن لما كان مُتَعَلَّقُهُ الذات العلية، أو الحضرة المصطفوية، صُنِفَ على انه من المعارف العقدية، ولعل قائل يقول: إن العقيدة لابد من قطعية أدلتها، كما هو مقرر في علم الكلام، فكيف اكتفيت بالتفسير والإشارة لتقرير بعض مسائلها؟ والجواب على ذلك: إن الذي يجب أن يكون دليله قطعيا، ما يجب اعتقاده على كل مكلف، وهو أصول العقيدة التي يكفر جاحدها.[١] أما فروعها فيكفي فيها صحة الدليل وصحيح الفهم، وبعضها يفهم بالإشارة، إلا أن هذا الفهم لا يَلزَمُ غير أصحابه، فقد قال ﷺ ((وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا))[٢] وقال سيدنا علي ﷺ: (حَدِّثُوا الناس بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ الله وَرَسُولُهُ) وهذا يدل على وجود فهوم خاصة، لا يُلزَمُ بها غيرهم، ويسُلَّمُ بها لهم، ولا تُنكَرُ عليهم ما لم تعارض ثابتا.

وقد تراءت لي بعض المعاني التي تضمنتها بعض الآيات القرآنية مما له صلة ببيان عظيم قدر نبينا محمد ﷺ، من شأن الواقف عليها أن تتسع دائرةُ معرفته بالنبي ﷺ فينتج عنه إيمان وتعلق خاص به ﷺ فأودعت هذه المعاني فيما يأتي من المباني ببحث أسميته: إشارات عقدية تتعلق بخير البرية وقسمته إلى فصلين:

الفصل الأول: ميثاق الأنبياء ودلالاته.

الفصل الثاني: العلاقة بين الفلاح والنبي ﷺ

أسأل الله بذل الافتقار من عز الاقتدار الهداية للحق، والتوفيق لما هو صواب، والعصمة من الزلل، انه ولي النعم، ومصدر الكرم، بجاه من أرسله رحمة للعرب والعجم، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى اله حق قدره ومقداره العظيم.

واجبات عقدية في حق خير البرية

---

١ – ينظر العقيدة الإسلامية ومذاهبها: د. قحطان عبد الرحمن الدوري، ط/ الأولى ٢٠١١م، مطبعة ناشرون – لبنان –: ص٢٨

٢ الجامع الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق الناشر: دار ابن كثير، اليمامة – بيروت – الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ – ١٩٨٧: ١/ ٣٥٤ برقم: ٩٩٧.

الفصل الأول: ميثاق الأنبياء ودلالاته

لقد اخذ الله ميثاقا على الأنبياء يقتضي وجوب إيمانهم بالنبي محمد ﷺ ونصرته، وحكم على المتولي منهم عن مضمون ذلك الميثاق بالفسق قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١] وفي هذه الآية إشارات إلى خصوصيات نبوية محمدية، يحسن الانتباه إليها ومعرفتها، ومراعاة مقتضاها اعتقادا وتأدبا مع النبي ﷺ،ولاستجلاء هذه الإشارات لابد من تحليل هذه الآية على النحو الآتي:

المبحث الأول: في الدلالات اللغوية

المطلب الأول: معنى الميثاق:

الميثاق هو العهد كما يقول الجوهري.[٢] إلا أن الظاهر من كلام العلماء، أن الميثاق إنما يطلق على المؤكد من العهود حدَّ التغليظ، لذا فرَّقَ أبو هلالِ العسكريُ بينَ العهدِ والميثاقِ فقال: (إنَّ الْمِيثَاقَ توكيدُ الْعَهْد، من قَوْلِكَ أوثقتُ الشَّيْءَ إذا أحكمتَ شَدَّهُ)[٣] وقال الفراء: (أخذ الميثاق بمنزلة الاستحلاف)[٤] ومن هنا نستطيع القول بان إطلاق لفظ الميثاق على العهد، ينبئ بأهمية مضمون ذلك العهد، من حيث صعوبة الوفاء به، وخطورة ما يترتب على تضييعه، ومما يؤيد هذا المعنى، أن الله تعالى قد أخبر في القرآن الكريم، أنه قد أخذ العهد على بني إسرائيل بقوله تعالى:﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[٥] ولم يبين مضمون الميثاق في هذه الآية، وقد بين في آيتين أخريين بأنه:

---

١ – سورة آل عمران، الآية: ٨١، ٨٢.

٢ – ينظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م:١٥٦٣/٤.

٣ – الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر: ٥٧/١.

٤ – معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ) المحقق: أحمد يوسف النجاتي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشلبي الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر الطبعة: الأولى: ١/ ٢٢٥.

٥ – سورة المائدة، الآية: ٧٠.

١ – البيان لأحكام الدين وعدم كتمانها قال تعالى﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[١]

٢ – إنه مجموع التكاليف الشرعية قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[٢] ولما كان من أعظم الذنوب إخفاء الحق الذي أوحى الله به إلى أنبيائه، وتضييعُ جملة أحكام الدين، عاقبهم الله تعالى على ذلك اشد العقوبات قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٣]

إذاً إطلاق لفظ الميثاق على العهد ينبئ بأهمية مضمون ذلك العهد، من حيث صعوبة الوفاء به، وخطورة ما يترتب على تضييعه.

المطلب الثاني: ما يفيده دخول اللام على (ما):

قال الزجاجي: لام الابتداء تدخل على المبتدأ والخبر مؤكدة كما في قوله تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾[٤] وقوله: ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[٥] وهذه اللام لشدة توكيدها وتحقيقها ما تدخل عليه، يقدر ما قبلها قسما، لأن هذه اللام مفتوحة كما أن لام القسم مفتوحة، ولأنها تدخل على الجمل، كما تدخل لام القسم، ولأنها مؤكدة محققة كتحقيق لام القسم، ولكنها ربما كانت لام قسم، وربما كانت لام ابتداء، واللفظ بهما سواء، ولكن بالمعنى يستدل على القصد، فمن قال: لزيدٌ قائمٌ محققا لخبره، لا يقال له حنثت إن كان زيدٌ غير قائم، فهي لام ابتداء وليست لام قَسَم، ولكن إذا وقع بعدها المستقبل ومعه النون الثقيلة أو الخفيفة، فهي لام القسم، سواءٌ ذكر القسم قبلها أو لم يذكر، كقوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾[٦] ؛ وكقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ، ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٧] ؛ فاللام في هذا كله للقسم، وليس قبله قسم

---

١ – سورة آل عمران، الآية: ١٨٧

٢ – سورة البقرة، الآية: ٨٣.

٣ – سورة المائدة، الآية: ١٣.

٤ – سورة الحشر، من الآية: ١٣.

٥ – سورة النحل، من الآية: ٣٠

٦ –سورة آل عمران، من الآية: ١٨٦.

٧ – سورة التكاثر، الآية:٨

ظاهر إلا في النية، وإنما حُكِمَ عليها بذلك ؛ لأن القسم لو ظهر، لم يجز أن يقع الفعل المستقبل محققا إلا باللام والنون، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ يؤيد ما ذكرنا؛ لأنه قد ذكر أخذ الميثاق، ثم أتى باللام والنون مع الفعل، فدل على أنها لام القسم.[١] للاتفاق على أَن وجود الْمُضَارع مفتتحا بلام مَفْتُوحَة مختتما بنُون مُؤَكدَة دَلِيل قَاطع على الْقسم وَإِن لم يذكر مَعَه أَخذ الْمِيثَاق أَو نَحوه.[٢]

وقال ابن منظور: قال الأخفش: اللام التي في (لَمَا) موطئة وما اسم موصول، والذي بعدها صلةٌ لها، واللام التي في ﴿لتؤمِنُنّ به ولتنصرنَّه﴾ لامُ القسم، كأَنه قال والله لتؤْمنن، يُؤَكّدُ في أَول الكلام وفي آخره وتكون من زائدة.[٣]

المطلب الثالث: معاني (لَمَا)

ورد لفظ (لَمَا) في الآية مرتين الأولى مفتوحة اللام – ﴿ لَمَا آتَيْتُكُمْ ﴾ والثانية مكسورة اللام ﴿لِمَا مَعَكُمْ ﴾ وفيهما قراءات

الأُولى: (لَمَا) بفتح اللام وهي قراءة جمهور السبعة [٤]

الثانية: (لِمَا) بكسر اللام وهي قراءة حمزة[٥]

والمعنى كما قال الطوسي: اذكروا إذ أخذ الله ميثاق النبيين، لان (إذ) لما مضى، ومعنى أخذ الميثاق من النبيين بنصرة من لم يلقوه ولم يدركوا زمانه، هو أنهم ينصرونه بتصديقه عند قومهم، ويأمرونهم بالإقرار به، كما قيل: إنما أخذ الله ميثاق النبيين الماضين بتصديق محمد ﷺ، هذا قول علي عليه السلام[٦]

---

١ – ينظر اللامات: لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، (المتوفى: ٣٣٧هـ) تحقيق: مازن المبارك، الناشر: دار الفكر – دمشق–، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م: ١/٧٨، ٧٩.

٢ – مغني اللبيب: ١/ ٥٣٣.

٣ – ينظر لسان العرب: ابن منظور تحقيق: عبد الله علي الكبير + محمد أحمد حسب الله + هاشم محمد الشاذلي دار النشر: دار المعارف – القاهرة–:٥/ ٤١٠٤.

٤ – تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار النشر: دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت – الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ –٢٠٠١م، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: د. زكريا عبد المجيد النوقي: د. أحمد النجولي الجمل:٢/ ٥٣٢

٥ – ينظر المصدر نفسه: ٢/ ٥٣٢

٦ – التبيان في تفسير القرآن: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ: ٢/ ٥١٣.

الثالثة: لَمَّا، بِتَشْدِيدِ الْمِيم، وَهي قراءة سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنُ:[١] واللام على قراءة الفتح تعليلية، أَي لأجل إيتائي إيَّاكُمْ بعض الْكتاب وَالْحكمَة[٢]، وكذا على قراءة الجر.[٣] والمعنى على هذا، أن إيتاءكم الكتاب والحكمة هو السبب الموجب للإيمان به ﷺ، وأما على قراءة التشديد (لمَّا) فقد اتفق ابن عطية والزمخشري على أنها ظرفية، بمعنى: حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة، ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم، وجب عليكم الإيمان به ونصرته.[٤] وهو تحديد لوقت الإيمان به ﷺ .

وبعد ذكر معاني (لَمَا) مع ملاحظة أن اللام الداخلة على أفعال هذه الآية للقسم نخلص إلى القول بأن المعنى الإجمالي للآية هو، كأن الله تعالى يقول: وعزتي أو وجلالي، وجب عليكم الإيمان به ونصرته في الوقت الذي آتيتكم فيه الكتاب والحكمة، وفق قراءة الحسن وسعيد بن جبير، أو لأجل إيتائي إيَّاكُمْ بعض الْكتاب وَالْحكمَة وفق قراءة الجمهور وحمزة.

المبحث الثاني: في مَنْ أُخِذَ عليهم الميثاق

دلَّ المنطوق القرآني على أن الله تعالى إنما أخذ الميثاق على الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام – فهل هو خاص بهم أو أنه يتعداهم إلى أممهم؟

ذهب الطبري إلى أن الميثاق المأخوذ على الأنبياء يتناول الأمم، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾: (يعني بذلك جل ثناؤه: واذكروا يا أهل الكتاب إذ أخذ الله ميثاق النبيين)[٥]

---

١ – ينظر البحر المحيط: ٣/ ٢٣٧.

٢ – ينظر الكتاب: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م: ٣/ ١٠٧. ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ) تحقيق: د. مازن المبارك/ محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة: السادسة ١٩٨٥م: ١/ ٢٧٦.

٣ – ينظر البحر المحيط: ٢/ ٥٣٤.

٤ – ينظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ: ١/ ٣٧٩. والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ: ١/ ٤٦٥.

٥ – جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م: ٦/ ٥٥٠.

وبمثله قال البصريون، فقد ذُكِرَ أنهم قالوا: (إذا أخذ الله ميثاق النبيين فقد أخذ ميثاق الذين معهم لأنهم قد اتبعوهم وصدقوهم)[١] واستشهد له أبو حيان بقول سيدنا عليّ ﷺ: (ما بعث الله نبياً إلاَّ أخذ عليه العهد في محمد ﷺ، وأمره بأخذ العهد على قومه فيه بأن يؤمنوا به وينصروه إن أدركوا زمانه.)[٢] وجعل مجيء الرسول محمد ﷺ للأنبياء المذكور في صدر الآية ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ من الْمَجَاز، فَيَكُونُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ أَتْبَاعِ النَّبِيِّينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَوْ مِيثَاقَ أَوْلَادِ النَّبِيِّينَ، فَيُوَافِقُ صَدْرَ الْآيَةِ مَا بَعْدَهَا، وهو قوله: ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ؛ إذ لا يتصور تولي الأنبياء عن ميثاقٍ أخذه الله عليهم وهم المعصومون، وَجَعَلَ ذَلِكَ مِيثَاقًا لِلنَّبِيِّينَ، عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ لِهَذَا الْمِيثَاقِ، أَوْ يَكُونُ الْمَأْخُوذُ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ هم الأمم مُقَدَّرًا بَعْدَ النَّبِيِّينَ، والتَّقْدِيرُ: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ عَلَى أُمَمِهِمْ، ومما يُبَيِّنُ أَيْضًا أَنَّ الْمِيثَاقَ كَانَ عَلَى الْأُمَمِ قَوْلُهُ: فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ وَمُحَالٌ هَذَا الْفَرْضُ فِي حَقِّ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ فِي حَقِّ الْأَتْبَاعِ.[٣]

ولا شك أن تذكير الأمم بالميثاق المأخوذ على النبيين، يتضمن في طيّهِ الأمر بالالتزام بمضمون ذلك الميثاق، من الإيمان به ونصرته ﷺ، خصوصا إذا علمنا أن نصرة الأمم له ﷺ، ابلغ من نصرة أنبيائهم له ﷺ ؛ إذ الأنبياء صائرون إلى الله تعالى والأمم باقية.

وأخذ الميثاق من النبيين له ﷺ مع علمه سبحانه أنهم لا يدركون وقته، لا يمنع من ذلك، على ما دل عليه كلام الأمير علي ﷺ، لما فيه من التعظيم له ﷺ والتفخيم ورفعة الشأن، والتنويه بالذكر إلى ما لا ينبغي إلا لذلك الجناب، وتَعظُمُ الفائدةُ إذا كان ذلك الأخذ عليهم في كتبهم، ومن الأحاديث المؤيدة لهذا المعنى ما أخرجه أبو يعلى عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ:((لا تسألوا أهلَ الكتابِ عن شيءٍ، فإنَّهم لَن يَهدُوكُم، وَقَد ضَلّوا، فَإما أن تُصَدِّقُوا بِبَاطلٍ، وَإما أن تُكَذِّبُوا بِحَقٍ، وَأَنَّهُ وَاللهِ لَو كَانَ مُوسَى حَيَّاً بَينَ أظهُرِكُم، مَا حَلَّ لَهُ إلا أن يتبعني))[٤]

---

١ – معاني القرآن: أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: ٣٣٨هـ) المحقق: محمد علي الصابوني الناشر: جامعة أم القرى – مكة المرمة الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ:١/ ٤٣١.

٢ – البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر – بيروت – الطبعة: ١٤٢٠ هـ: ٣/٢٣٦.

٣ – ينظر البحر المحيط: ٣/ ٢٣٦ – ٢٣٧.

٤ – مسند أبي يعلى: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار النشر: دار المأمون للتراث – دمشق –، الطبعة: الأولى١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م: ٤/ ١٠٢

وفي معناه أخبار كثيرة وهي تؤيد بظواهرها ما قلناه، ومن هنا ذهب العارفون إلى أنه ﷺ هو النبي المطلق، والرسول الحقيقي، والمشرع الاستقلالي، وأن من سواه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في حكم التبعية له ﷺ.[١]

ومما تجدر الإشارة إليه أمور:

الأول: إن جميع الأنبياء داخلون في مقتضى هذا الخطاب بما فيهم سيدنا ادم عليه الصلاة والسلام لان (أل) في النبيين جنسية. وما سيكون يوم القيامة مما وصفه ﷺ بقوله: (بيدي لواء الحمد تحتي آدم فمن دونه)[٢] تجسيد لهدا الأمر.

الثاني: أن آية الميثاق تشتمل على أمرين:

أولهما: الإيمان بالنبي محمد ﷺ.

ثانيهما: نصرته عليه الصلاة والسلام.

أما الإيمان به ﷺ فلا إشكال في تحققه بالنسبة للمتقدمين، فهو ممكن الحصول ممن أدركه ﷺ ومن لم يدركه على حد سواء، لأنه من أفعال القلوب، وهي لا تتوقف على معاصرة ولا رؤية. أما نصرة الأنبياء للنبي ﷺ ومن لم يدركه من أممهم فهي أمر مشكل ؛ لأنها من أفعال الجوارح وهي تتوقف على وجودهم أحياء في زمنه ﷺ، في حين أننا لا نشك في امتثالهم لهذا الأمر، مع أنهم لم يدركوه ﷺ ؛ لذا نحتاج إلى توجيه وتفسير يتبين لنا به كيفية امتثالهم لهذا الأمر، ولبيان هذا نقول: إن الواجب الشرعي يحتم على المأمورين به أمرين:

أولهما: وجوب اعتقاده.

ثانيهما: امتثاله.

أما وجوب اعتقاده فهو راجع إلى أفعال القلوب، وقد تقدم القول بان هذا يُقَتَدرُ عليه في كل وقت، وهو غير مقترن بزمن دون آخر، بل هو ملازم للقلب لا ينفك عنه، كاعتقاد وجوب الصلاة فانه لا يكون في وقت أدائها فقط، بل هو ملازم للقلب، حتى أن المعذور بتركها كالحائض مثلا لا يعذر بعدم اعتقاد وجوبها بل لو اعتقده لكفر.

وأما امتثال الأمر بنصرته ﷺ فلا شك أنها وقعت من الأنبياء والمؤمنين من أممهم والذي نريد معرفته هو صورة هذه النصرة،

---

١ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت–: ٣/ ٢١٠.

٢ – صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣،١٤:/ ٣٩٨. قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره

وقبل ذلك لابد من إدراك أمر، وهو أن النبي محمدا ﷺ، منصور من الله عز وجل، ومؤيد بملائكته قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] فهو ﷺ ممدود بجنود خفية ومؤيد بالأسرار الإلهية على الدوام، ومما يدل على ذلك ما وقع في معركة بدر، فقد أرسل الله الملائكة لتقاتل معه فعليا قال تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۞ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[2] ولتثبيت المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آَمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[3] ولكي لا يتوهم متوهم أن النصر إنما صنعته الأسباب قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[4] وفي غزوة الأحزاب بلغ الضيق بالمسلمين مبلغا عظيما استغله المنافقون في فتِّ عضد المسلمين حتى قال قائلهم: (كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَأَحَدُنَا الْيَوْمَ لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ)[5]

وقد صوَّرَ القرآن ذلك ابلغ تصوير بقوله:﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[6] فتدخلت قدرة الله تعالى وحسمت المعركة لصالح المسلمين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[7] وفي حنين إذ أُعجِبَ المسلمونَ بِكثرتِهِم، فما أن فاجئهم العدو حتى هرب الجميع، إلا مجموعة قليلة من الناس ثبتوا مع النبي ﷺ، ومن المعلوم أن الجيش في حال الهزيمة

---

١ – سورة التوبة، الآية: ٤٠.

٢ – سورة آل عمران، الآيتان: ١٢٤، ١٢٥

٣ – سورة الأنفال، الآيتان: ١٢، ١٣

٤ – سورة آل عمران، الآية: (١٢٦)

٥ – السيرة النبوية لابن هشام، تأليف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار النشر: دار الجيل – بيروت –، الطبعة: الأولى١٤١١هـ،: ٤/ ١٧٩.

٦ – سورة الأحزاب، الآيتان: ١٠، ١١.

٧ – سورة الأحزاب، الآية:٩.

يخسر الكثير من الأنفس، إلا أنَّ تولي المسلمين يوم حنين لم يؤدِّ إلى قتل واحد منهم! بل مجموع من استُشهد في غزوة حنين أربعة، احدهم جمح به فرس يقال له الجناح فقتله لم يمت واحد منهم فاراً [١] وأما المشركون فقتل منهم خلق كثير نحو الأربعين[٢] فكيف حصل هذا؟ انه لمن الصعب أن نفسر ذلك وفق المقاييس العقلية، خصوصا إذا علمنا أن عدد المشركين يومئذ بلغ عددا كبيرا، حتى أن الكُتّابَ والمؤرخينَ لم يذكروا عدد أفرادهم، إنما ذكروا عدد القبائل التي اجتمعت على حرب النبي ﷺ وهي: هَوَازِنَ وثَقِيفٌ كُلّهَا، ومعهم نَصْرٌ وَجُشَمٌ كُلّهَا، وَسَعْدُ بْنُ بَكْرٍ، وَنَاسٌ مِنْ بَنِي هِلَالٍ [٣] بينما بلغ عدد المسلمين اثنا عشر ألفا أَلْفَانِ مِنْ أَهْلِ مَكّةَ، وعَشَرَةِ آلَافٍ مِنْ الّذِينَ خَرَجُوا مَعَ النبي ﷺ من المدينة لفتح مكة، وقد فرَّ الجميع لا يلوون على شيء، قال انس ﷺ وارتفع النقع فما منا أحد يبصر كفه حتى بلغ بعضهم مكة.[٤] ولم يبق مع النبي ﷺ إلا العدد القليل، وبعد أن نادى العباس ﷺ بالناس يدعوهم إلى الرجوع بأمر النبي ﷺ، لم يقدر على الرجوع مَن أراد الإجابة من شدة الزحام وكثرة الفارين، حتى أن الرّجُلُ لِيُثْنِيَ بَعِيرَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَأْخُذُ دِرْعَهُ فَيَقْذِفُهَا فِي عُنُقِهِ، وَيَأْخُذُ سَيْفَهُ وَتُرْسَهُ وَيَقْتَحِمُ عَنْ بَعِيرِهِ وَيُخَلّي سَبِيلَهُ فَيَؤُمّ الصّوْتَ، حَتّى يَنْتَهِيَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَتّى إذَا اجْتَمَعَ إلَيْهِ مِنْهُمْ مِئَةٌ، اسْتَقْبَلُوا النّاسَ فَاقْتَتَلُوا فمَا رَجَعَتْ رَاجِعَةُ النّاسِ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ حَتّى وَجَدُوا الْأُسَارَى مُكَتّفِينَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ .[٥] من هذا نخلص إلى أن الذين قاتلوا من المسلمين يوم حنين قريب من المائة، فما هي الخطة الفريدة التي اتبعوها؟ وما هو السلاح الفتّاك الذي استعملوه؟ لم تذكر لنا كتب الرواية والتاريخ شيئا من ذلك، إلا أنها ذكرت فيما رواه العباس ﷺ أن النبي ﷺ (أَخَذَ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ انْهَزَمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، انْهَزَمُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، قَالَ فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، قَالَ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَصَيَاتِهِ، فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا حَتَّى هَزَمَهُمْ اللَّهُ.[٦] فالله أعلم بما تسببت تلك القبضة بفعله، فعن أبى السائب بن يسار، قال: سمعت يزيد بن عامر السوائي – وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم بعد – قال: فنحن نسأله عن

---

١ – ينظر سيرة ابن هشام: ٥/ ١٢٨.

٢ – ينظر الفصول في سيرة الرسول ﷺ: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء: ١/٨٣.

٣– ينظر سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٣٧.

٤ – ينظر سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد المؤلف: محمد بن يوسف الصالحي الشامي: ٥/ ٣١٨

٥ – ينظر سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٤٠، ٤٤٤، ٤٤٥

٦ – مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، الناشر: مؤسسة قرطبة – القاهرة، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها: ١/ ٢٠٧، برقم (١٧٧٥)، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين

الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين: كيف كان ؟ قال: فكان يأخذ لنا بحصاة فيرمى بها في الطست فيطن، قال: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا.[١]

قال تعالى:﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢]

كما أن الملائكة قد حضرت المعركة حتى أن أُمَيّةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ حَدّثَ أَنّ مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ بَعَثَ عُيُونًا مِنْ رِجَالِهِ، فَأَتَوْهُ وَقَدْ تَفَرّقَتْ أَوْصَالُهُمْ فَقَالَ وَيْلَكُمْ مَا شَأْنُكُمْ ؟ فَقَالُوا رَأَيْنَا رِجَالًا بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ فَوَاَللهِ مَا تَمَاسَكْنَا أَنْ . أَصَابَنَا مَا تَرَى.[٣]

وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ لَقَدْ رَأَيْتُ قَبْلَ هَزِيمَةِ الْقَوْمِ وَالنّاسُ يَقْتَتِلُونَ مِثْلَ الْبِجَادِ[٤] الْأَسْوَدِ أَقْبَلَ مِنْ السّمَاءِ حَتّى سَقَطَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ فَنَظَرْت، فَإِذَا نَمَلٌ أَسْوَدُ مَبْثُوثٌ قَدْ مَلَأَ الْوَادِيَ لَمْ أَشُكّ أَنّهَا الْمَلَائِكَةُ ثُمّ لَمْ يَكُنْ إلّا هَزِيمَةُ الْقَوْمِ .[٥]

فهذه هي الأسباب الحقيقية لنصر النبي ﷺ، وهي عوامل طمأنينته، كما أن نتائج المعركة محسومة لديه قبل وقوع المعركة، فقد جاء رجل فارس قبل المعركة فقال: يارسول الله، إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن قد جاءت عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم، اجتمعوا، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: ((تلك غنيمة للمسلمين غدا إن شاء الله تعالى))[٦] فكانت النتيجة كما قال، وأمر رسول الله ﷺ بالسبي والغنائم أن يجمع . وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل: أربعة وعشرين ألفا، والغنم أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة .[٧] فكيف أحرز مائة شخص كل هذا لولا ما تقدم ذكره؟

---

١ – دلائل النبوة: ٥/ ١٤٤

٢ – سورة الأنفال، الآية: ١٧

٣ – سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٣٩

٤ – البجاد الكساءُ أراد الملائكة الذين أيدهم الله بهم وأصبحت الأَرض بَجْدةً واحدة إذا طبقها هذا الجراد الأَسود. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري الناشر: دار صادر– بيروت، الطبعة الأولى:٣/ ٧٧.

٥– سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٤٩

٦ – سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد: محمد بن يوسف الصالحي الشامي: ٥/ ٣١٥

٧ – ينظر الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، دار صادر – بيروت –: ٢/ ١٥٢، وفتح الباري شرح صحيح البخاري: احمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب، الناشر: دار المعرفة – بيروت –: ٨/ ٤٨

قال تعالى:﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[١] .

لقد سبق حكم الله تعالى بنصر نبيه ﷺ قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٢] ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[٣] وحكم الله لا يَتَخَلَّفُ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾[٤] ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [٥] قال أبو حيان: والظاهر أن الضمير في (ليظهره) عائد على الرسول ﷺ لأنه المُحدّث عنه، والدين هنا جنس أي: ليُعلِيَهُ على أهل الأديان كلهم، فهو على حذف مضاف[٦] ويقول القشيري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[٧] اعترف لهم بنصرة الرسول ﷺ وإلا فالنبي ﷺ كان الله حسيبه، ومَنْ كان استقلاله بالحق لم يقف انتعاشه على نصرة الخلق[٨].

وبناء على ما تقدم ذكره نقول: إن النبي ﷺ سبق له الحكم بالنصر من الله تعالى، وهو غير مشروط بتوافر أسباب، بل بالمدد الإلهي والتأييد بالملائكة، ولم يُشترط اتباع النبي ﷺ يوما لنصرته عليه الصلاة والسلام. ولا أدلَّ على ذلك من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[٩] وان كان ثَمَّةَ شرط في القضية فهو متابعة النبي ﷺ، إلا أنها شرط لنصرة المؤمنين وليس العكس ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١٠] ولا ننسى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ

---

١ – سورة التوبة، الآيتان: ٢٥، ٢٦.
٢ – سورة التوبة، الآية: (٣٣)
٣ – سورة الفتح، الآية: ٢٨
٤ – سورة الأحزاب، الآية: ٣٨
٥ – سورة الطلاق، الآية: ٣
٦ – تفسير البحر المحيط: ٥/ ٣٤
٧ سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
٨ – تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ) تحقيق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر – الطبعة الثالثة: ١/ ٥٧٨
٩ – سورة التوبة، الآية: ٢٥
١٠ – سورة محمد، الآية:٧

عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [١] ففي الوقت الذي بذل فيه المشركون كل ما يملكون للقبض على النبي ﷺ ولم يكن معه من أسباب النصر المعهودة قليل ولا كثير، سوى رجل لا يعدو أن يكون مؤنسا، ينصره الله، وينزل عليه السكينة، ويؤيده بجنود، فلم تغن جنود المشركين شيئا، وسَفُلت كلمتهم، وكانت كلمة الله هي العليا، وهكذا شأن المنصور من الله بالله، ومن كان بهذه المثابة كانت نصرته من المؤمنين امتثال ديانة لا تحقيق غاية.

ومن هنا نستطيع القول: بأن نصرة الأنبياء عليهم السلام ومن مضى من أممهم لنبينا ﷺ تتمثل في أمرين:

أولهما: قلبيٌ وهو اعتقاد أفضليته، ومحبته وربط القلوب به ﷺ، وكل ذلك مفهوم من وجوب الإيمان به ونصرته. وهذه عبادة يُتقرب بها إلى الله، ومما يشير إلى هذا المعنى بوضوح تام، قوله ﷺ: ((وَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إلا أَنْ يَتَّبِعَنِي))[٢]، ولا أرى أن علة ذلك هو أن دين سيدنا موسى عليه السلام صار منسوخاً في زمان النبي محمد ﷺ، وان قال المباركفوري ذلك في مراعاة المفاتيح[٣]؛ لأنه لو كان هذا هو السبب؛ لَأُخذ العهد على كل نبي بمتابعة من يأتي بعده لان شريعة اللاحق ناسخة لشريعة السابق، إنما أخذ الميثاق لبيان فضله ﷺ، ولا يسع المفضول إلا متابعة الفاضل، ليأخذ بيده لما هو أرقى وإلا كان مقصرا، ولما كان التقصير غير جائز في حق الأنبياء قال ﷺ: ما حل له إلا أن يتبعني .

ثانيهما: جسدي وهو أن يبلغ السابقُ منهم اللاحقَ بمضمون العهد المأخوذ عليهم، وجميع ذلك ممكن للأنبياء والأمم السابقة، وفي كلا الأمرين إعلان بمزيد بفضله ﷺ، الذي اقتضى الإيمان به، وتعظيمه، والاستعداد النفسي لمتابعته، وخدمته بالتبشير بدينه، واخذ المواثيق على ذلك، ويتفرع عن ذلك، محبته، وربط القلوب به ﷺ، ولعله لهذا أخذ الله تعالى له الميثاق عليهم مع

---

١ – سورة التوبة، الآية: ٤٠.

٢ – مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني الناشر: مؤسسة قرطبة – القاهرة الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها: ٣٣٨/٣. ومسند أبي يعلى: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث – دمشق الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م: ١٠٢/٤. قال ابن حجر في فتح الباري بعد أن ساق طرق الحديث: وَهَذِهِ جَمِيع طُرُق هَذَا الْحَدِيث وَهِيَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يُحْتَجّ بِهِ لَكِنَّ مَجْمُوعهَا يَقْتَضِي أَنَّ لَهَا أَصْلً. فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب الناشر: دار المعرفة – بيروت، (١٣٧٩هـ): ٥٢٥/١٣.

٣ – ينظر مشكاة المصابيح للعلامة الشيخ ولي الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي مع شرحه مراعاة المفاتيح للشيخ أبي الحسن عبيد الله بن العلامة محمد عبد السلام المباركفوري حفظه الله: ١/ ٦٩٢.

علمه بأنهم لم يدركوه، خصوصا انه لم يؤخذ لغيره مثل هذا الميثاق.

الفصل الثاني: العلاقة بين الفلاح والنبي ﷺ

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١]

في هذه الآية دلالات إشارية إلى عظم منزلة سيدنا محمد ﷺ وضرورة القيام بخدمته ومتابعته، ولاستجلاء ذلك وقبل أن ندخل في بيان مدلولات هذه الآية، لابد أن نتعرض لبيان سياق ورودها، المبحث الأول سياق ورود الآية

إن سياق الآية جاء ضمن قصة وقعت لبني إسرائيل والآية خطاب موجه إلى سيدنا موسى عليه السلام، ومضمون هذه القصة: أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناسٍ من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدًا، فاختار موسى من قومه سبعين رجلا على عينه، ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ....﴾ ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأرناه! فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رَبِّ ماذا أقولُ لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم، لو شئتَ أهلكتَهم من قبل وإيّاي! [٢] وهكذا أصبح صفوة بني إسرائيل شاكين في أصل الإيمان، بينما كان المفروض أن يعتذروا إلى الله أصالة عن أنفسهم ونيابة عن قومهم عما اقترفوه من عبادة العجل يقول سيد قطب: (ومع هذا فما الذي كان من هؤلاء المختارين؟ لقد أخذتهم الرجفة فصعقوا . ذلك أنهم – كما ورد في السورة الأخرى طلبوا إلى موسى أن يروا الله جهرة، ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض في الألواح . . وهي شاهدة بطبيعة بني إسرائيل، التي تشمل خيارهم وشرارهم، ولا يتفاوتون فيها إلا بمقدار، وأعجب شيء أن يقولوها وهم في مقام التوبة والاستغفار!)[٣].

فأوقعوا سيدنا الكليم في حرج آخر، فتحمَّلَ أعباء المهمة بنفسه واخذ يعتذر ويتوسل إلى ربه ويعد أن ما صدر منهم مرجعه السفاهة، ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ ويطلب لهم المغفرة والرحمة ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ ثم يطمع بكرم ربه قائلا: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ فلم يجبه الله على ما أراد بل قال له: ﴿عَذَابِي

---

١ – سورة الأعراف، الآية:١٥٧.

٢ – جامع البيان في تأويل القرآن: ١٣/ ١٤٠.

٣ –: في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ: ٣/ ١٣٧٧

أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ ممن أخذّته الرجفة وغيرهم[١] ولفت نظره إلى أمر آخر لم يسال عنه ووجه إليه خطابا مضمونه أن ما تطلب مدخر لأمة غير أمتك فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٢]

المبحث الثاني: العلاقة بين النبي ﷺ وكتابة الرحمة لامته

عندما طلب سيدنا موسى عليه السلام المغفرة والرحمة من الله له ولقومه ثم طلب المزيد من خيري الدنيا والآخرة كما حكى القران مسألته بقوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أجابه الله تعالى بما يدل على أن ما يطلبه من العفو مرتهن بالمشيئة الإلهية ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ وما يطلبه من الفضل ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ خاص ومدخرٌ لأُمةٍ غير أمته (كتابة خاصة لا تليق بكم يا بني إسرائيل، إنما تليق بالأمة المحمدية الموسومة بالآداب المرضية، الذين يتقون)[٣] وستناله هذه الأمة بمعرفة وأداء حق نبيها عليها دليل ذلك قوله:﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٤] وعند التأمل في هذا النص تظهر لنا عدة أمور تشير بوضوح تام إلى كرامة نبينا محمد ﷺ وعظم خصوصيته عند الله، ومن هذه الأمور:

١ – مدحه ﷺ بالأمية: ولا يخفى ما في هذه الصفة من مدح له ﷺ، مع أنها في غيره نقص وتقصير في طلب المعالي ولم يتصف بها إنسان إلا وفاته كثير من المعارف والعلوم، بينما لم يفته ﷺ شيء من الكمال البشري مع اتصافه بها! بمعنى انه ﷺ مع انه متصف بالأمية إلا أنها لم تكن حاجبا بينه وبين إدراك المعالي.

٢– إن النبي ﷺ هو السبب في التخفيف على أمته في الأحكام، والذي يدل على هذا المعنى هو نسبة هذه الأحكام إليه ﷺ ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فكأنه يقول: إن إباحة الطيبات، وتحريم الخبائث، ورفع الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، إنما هي كرامة له ﷺ.

---

١ – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة الطبعة: ١٤١٩ هـ: ٢٦٦/٢

٢ – سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.

٣ – تفسير البحر المديد: ٢٦٦/٢

٤ – سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

٣- ربط الله تعالى أسباب الفلاح به ﷺ وذلك بمراعاة عظيم منزلته وكرامته عند الله، فقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وكأنه يقول:

إن رسولي هذا وان كان مخلوقا لي، إلا أنه لا حرج في أن يكون عندكم معظما، وإيمانكم به ملحوظا قبل الإيمان بغيره، ونصركم لا ضير أن يكون له، وذلك لشدة ارتباطه بالله تعالى، إذ لا يُتصور توجه القلوب إليه إلا وزُجَّ بها في الحضرة الأحدية.[١] فيستحيل أن يُشرَكَ بالله بسبه ﷺ، ومما يُستأنس به لتقرير هذا المعنى، أننا نجد بعض الأمم السابقة قد أشركوا أنبياءهم مع الله تعالى، وبعض هذه الأمة قد أشركوا مع الله بعض أئمتها، كما حصل مع سيدنا علي ﷺ، إلا أننا لا نجد من أشرك مع الله تعالى رسوله محمدا ﷺ، هذا بالإضافة إلى التنويه بأنه ﷺ هو باب الدخول إلى ساحة رضا الله وكرامته، وواسطة العقد بيننا وبين الله، ومما يتفق مع هذا المعنى بوضوح، أن الله تعالى جعل لمحبته شرطا هو اتباع النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّه﴾[٢] ولم يقل فاتبعوا شرعي أو ديني، ومن هنا ينبغي أن يكون النبي ﷺ ملحوظا عند كل ما نؤديه طاعة لله على أنه نبينا ومقتدانا ووسيلتنا، ومما يؤيد هذا المعنى أمران:

أولهما: أن العلماء قالوا: إن خطاب العبد لربه في سورة الفاتحة بصيغة الجمع بقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ۞﴾[٣] وان كان منفردا؛ للإيذان بقصورِ نفسه، وعدمِ لِياقتِه للوقوف في مواقف الكبرياءِ منفرداً، وعَرْضِ العبادة، واستدعاءِ المعونة والهداية مستقلاً، وأن ذلك إنما يُتصور من عصابةٍ هو من جُملتهم، كأنه يقول إلهي ما بلغت عبادتي إلى حيث أذكرها وحدها، لأنها ممزوجة بالتقصير، ولكن أخلطها بعبادة جميع العابدين، وأذكر الكل بعبارة واحدة حتى لا يلزم تفريق الصفقة.[٤]

---

١ – المقصود (بالحضرة الأحدية) عند العارفين هي الذات البحت أي الخالصة عن الظهور في المظاهر وهي الأكوان. ينظر شرح الحكم العطائية عبد المجيد الشرنوبي الأزهريِ

٢ – سورة آل عمران، الآية: ٣١.

٣ ـ سورة الفاتحة، الآيتان: ٥,٦.

٤ – ينظر التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، تأليف: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت –، الطبعة: الأولى١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م: ١/٢٠١. وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تأليف: أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت: ١/ ١٧، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت –: ١/ ٨٨

وعندما يستحضر المؤمن إخوته من المؤمنين أثناء عبادته، ليجعل نفسه في زمرتهم عسى أن يُقبلَ عملُهُ مع أعمالهم، لا يُتصور منه نسيان إمام المتقين سيدنا محمد ﷺ، ولا يليق به إغفاله وهو أسوته ﷺ، وإذا استحضره لا بد أن يستحضر مكانته وجلالة قدره عند الله، ومن سوء الأدب أن يتخيل المؤمن نفسه بجنب رسول الله ﷺ، وإنما خلفه مع ملاحظة إمامته وعلو مكانته وقربه من ربه ﷻ.

ثانيهما: أن الصلاة من العبادات التي ينبغي أن ينقطع العبد فيها عما سوى الله، ويستولي ذكر الله فيها على قلب المصلي، قال تعالى مخاطبا كليمه موسى عليه السلام ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[١] ومن شروط هذه العبادة أن تؤدى على طهارة كاملة، ويحرم فيها الأكل والشرب والكلام والالتفات وكثرة الحركات، عسى أن تؤدى على وجه مرضي، ومع هذه القيود يتوقف المصلي وسط الصلاة وآخرها ويسلم على رسول الله ﷺ بصيغة الخطاب ملاحظا صلته بالله تعالى (مقام النبوة) السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المؤمن في اشد العبادات انقطاعا إلى الله لا ينبغي أن يغيب عنه إمامه ووسيلته إلى الله (سيدنا رسول الله ﷺ).

المبحث الثالث: معنى النور في الآية:

اختلف المفسرون في معنى النور في هذه الآية على أقوال، وهذا الاختلاف متفرع عن اختلافهم فيما يعود عليه ضمير (جعلناه) في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٢]، وذلك بسبب الوحدة الموضوعية للآيتين، وهذا الاختلاف يستحق أن نتأمله محاولة لاستظهار دقيقه، وهو يتمثل في ثلاثة أقوال:

الأول: انه القرآن[٣] لان الضمير في (جعلناه) يعود على الكتاب دون الإيمان لأنه هو الذي تعرف به الأحكام،، فلا جرم شبه بالنور الذي يهتدي به، وإنما سمي نوراً لأنه بإعجازه ظاهر أمره مظهر غيره، أو لأنه كاشف الحقائق مظهر لها،[٤] أو لأن به يستنير قلب المؤمن فيخرج

---

١ – سورة طه، جزء من الآية:١٤

٢ – سورة الشورى، جزء من الآية: ٥١

٣ – ينظر تفسير الطبري: ١٣/ ١٧٠.، وتفسير الرازي: ٢٧/ ١٦٤، و تفسير البيضاوي، المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، دار النشر: دار الفكر – بيروت: ٥/ ١٣٥.

٤ – ينظر تفسير الرازي: ١٣/ ١٧٠ وتفسير البيضاوي: ٦٥/٣.، والبحر المديد: ٢٦٩/٢

من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم، وقيل: النور هنا بمعنى الحق الذي بيانه في القلوب-[١] والمعنى أن القران جعله الله تعالى نورا يهدي به من يشاء.

ويرد على هذا المعنى أنه لا يُبقي معنى للخصوص في قوله تعالى: ﴿نهدي به من نشاء﴾، لان هداية القران التي هي عبارة عن إيضاح الدليل وبيان السبيل لجميع البشر، وحينئذ لا يبقى معنى للتقييد بـ (من نشاء) ولهذا قال الإمام الرازي هروبا من هذا الإشكال: إنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ولا اعتراض عليه فيه .[٢]

الثاني: إن الضمير في جعلناه يعود على القرآن والإيمان وَوُجِّدَ لأن مقصدهما واحد فهو نظير قوله تعالى: ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ [٣]﴾[٤] وعليه فالذي جعله الله نورا هو مجموع القرآن والإيمان وتسميتهما نورا لنفس المعاني المذكورة في القول الأول.

الثالث: إن الضمير يعود على الإيمان[٥] وهنا مسألة ينبغي التنبه إليها وهي أن عود الضمير على الإيمان أولى؛ لأنه اقرب ظاهر إلى الضمير، وعوده عليه واجب ما لم يمنع مانع، وإنما مال أغلب المفسرين إلى القولين الأولين؛ لأمر يتحاشونه كثيرا، وهو اعتقادهم أن القول بعود الضمير على الإيمان، يوهم عدم معرفة النبي ﷺ بالإيمان قبل أن يوحى إليه، لان تقدير الكلام حينئذ ولكن جعلنا الإيمان الذي أوحيناه إليك نورا نهدي به..الخ، وربطه بالوحي يعني انه ﷺ لم يكن عالما به قبل ذلك، وهو مما لا يجوز اعتقاده في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال أبو حيان: وعُطِفَ (ولا الإيمان) على (ما الكتاب)، وإنما معناه: الإيمان الذي يدركه السمع، لأن لنا أشياء من الإيمان لا تعلم إلا بالوحي . أما توحيد الله وبراءته عن النقائص، ومعرفة صفاته العلا، فجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عالمون بذلك، معصومون أن يقع منهم زلل في شيء من ذلك، سابق لهم علم ذلك قبل أن يوحي إليهم[٦] ولهذا فسر العلماء الإيمان المنفي في الآية بوجوه مختلفة ليتناسب مع عدم جهله ﷺ بشيء من قضايا الإيمان بالله تعالى.

---

١ – السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ)، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، عام النشر: ١٢٨٥ هـ: ٥٢٥/١

٢ – ينظر تفسير الرازي: ١٦٤/٢٧.

٣ – سورة التوبة، الآية: ٦٢.

٤ – ينظر تفسير الرازي: ٢٧/ ١٦٤، وتفسير البحر المحيط: ٧/ ٥٠٥

٥ – مشكل إعراب القرآن: مكي بن أبي طالب القيسي أبو محمد الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت– الطبعة الثانية، ١٤٠٥، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن: ٦٤٨/٢.

٦ – ينظر تفسير البحر المحيط: ٧/ ٥٠٤

الأول: { وَلاَ الإيمان } أي الصلاة، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إيمانكم ﴾[١] – أي صلاتكم–

الثاني: أن يحمل هذا على حذف المضاف، أي ما كنت تدري ما الكتاب ومن أهل الإيمان، يعني من الذي يؤمن، ومن الذي لا يؤمن.

الثالث: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان حين كنت طفلاً في المهد.

الرابع: الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به، وإنه قبل النبوّة ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى، بل إنه كان عارفاً بالله تعالى،

الخامس: صفات الله تعالى على قسمين: منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية . فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوّة[٢]، والذي يتراءى لي أن الأولى أن يقال: إن الضمير في (جعلناه) يعود على الإيمان وذلك لما يأتي:

١ – لأنه اقرب ظاهر إلى الضمير.

٢ – لان الإيمان معطوف على الكتاب فمن المؤكد شمولهما بحكم واحد والذي نصت عليه الآية هو نفي معرفته ﷺ بالكتاب ثم عطف الإيمان على الكتاب ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾

٣ – إن الهداية العامة التي هي بمعنى الدلالة والإرشاد مبذولة لكل احد ولا يُخَصُ بها إنسانٌ دون آخر قال تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ وقال تعالى في هذا المعنى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أما الإيمان الذي جعله الله نورا يهدي به من يشاء فهذه هي الهداية الخاصة، قال الإمام الرازي:(وقوله: ﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يفيد الخصوص فثبت أن الهداية بمعنى الدعوة عامة والهداية في قوله ﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ خاصة والهداية الخاصة غير الهداية العامة فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿ نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ أمراً مغايراً لإظهار الدلائل ولإزالة الأعذار.)[٣] إلا انه لم يتعرض لمعنى هذه الهداية،

٤ – الآية السابقة لهذه الآية ذكرت الوحي وبينت أنواعه بقوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٤] وبعد هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومثل ذلك

---

١ – سورة البقرة، الآية: ١٤٣

٢ – ينظر تفسير الرازي: ٢٧/ ١٦٤

٣ – تفسير الرازي: ٢٧/ ١٦٤

٤– سورة الشورى، الآية: ٥١

الإيحاء أوحينا إليك، إذ كان ﷺ اجتمعت له الطرق الأربعة: النفث في الروع، والمنام، وتكليم الله له حقيقة ليلة الإسراء، وإرسال رسول إليه، وهو جبريل،[١] ولكن مع ملاحظة كلمة روح يضاف معنى جديد يبين نوع الموحى به وليس طريقة الوحي، وقد اختلف المفسرون في تحديد معناه فعن الحسن انه الرحمة[٢]، وقال ابن عباس: النبوة . وقال السدي: الوحي؛ وقال قتادة: رحمة؛ وقال الكلبي: كتاباً، وقال ابن زيد: الروح التي نفخها تعالى في عيسى عليه السلام، وقال الربيع: جبريل، وعليه فأوحينا مضمن معنى أرسلنا، قال أبو حيان: وهذا أصح الأقوال . وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت ((أهجُ قريشاً وروحُ القدسِ معك))، ومرة قال له؛ ((وجبريل معك)) . قالوا: ويقوي ذلك قوله تعالى: { إذ أيدتك بروح القدس } وقال حسان:

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء[٣]

والذي يبدو والله اعلم بمراده، إن المقصود بكلمة (روح) شيء آخر لعلنا نستجليه بذكر المقدمات الآتية:

١ – إن النص القرآني قد سمى الموحى به روحا وبين مصدر هذا الروح بقوله (من أمرنا) وهذا النص يشبه حرفيا إلى حد كبير قوله تعالى ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٤] مما يدل على المبين واحد ولو من حيث الجنس فان هذه الآية وردت إجابة على سؤال اليهود للنبي ﷺ عن الروح[٥] وقد قال المفسرون: إن الروح المسؤول عنها هي الروح التي بها يصبح الجماد حيا، أو نوع من الملائكة،[٦] وهذا يرجح تشابه الروحين. كما انه من الصعوبة أن يُفرق بين قوله: ﴿ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وقوله: ﴿ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ فكلاهما يحتمل تأويلين:

أحدهما: أن يكون (الأمر) اسم جنس للأمور أي الروح من جملة أمور الله التي استأثر بعلمها، فهي إضافة خلق إلى خالق، والآخر: أن يكون مصدراً من أمر يأمر أي الروح مما أمره أمراً بالكون فكان[٧].

---

١ – ينظر جامع البيان في تأويل القرآن: ٢١/ ٥٥٩، والبحر المحيط: ٧/ ٥٠٤، والمحرر الوجيز: ٥/ ٤٤.

٢ – ينظر تفسير الطبري: ٢١/٥٦٠.

٣ – ينظر البحر المحيط: ١/ ٤٦٨، وتفسير الآلوسي: ١/ ٣١٧.

٤ – سورة الإسراء، من الآية: ٨٥

٥ – ينظر تفسير الطبري: ١٧/ ٥٤٢

٦– ينظر تفسير الطبري: ١٧/ ٥٤٤.

٧ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،: ٣/ ٤٨٢

٢ – إن القرآن المجيد ذكر لنا أن سيدنا عيسى عليه السلام قد آتاه الله الإنجيل وأيده بالروح وهما أمران متغايران ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[١] ولا قائل بان الروح هنا هو عين الإنجيل.

٣ – قوله تعالى عن ذلك النور ﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يبين أن ذلك النور هو آلة الهداية (نهدي به). وهو الذي يصرف اختيار العبد نحو الاهتداء .(وإنك لتهدي) بذلك النور مَن نشاء هدايته[٢] فان هذا النوع من الهداية الأرجح أنها هداية التوفيق،، بقرينة الشطر الثاني من الآية ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فان هذه الهداية هي إظهار الدلائل وإزالة الأعذار وهي المنسوبة للنبي ﷺ، فالهداية بهذا المعني دلالةٌ وإرشاد، أما الهداية بالنور فهي منسوبة إلى الله تعالى، وهي هداية توفيق وإسعاد.

فالقول بتغاير الهدايتين أرجح كي لا يكون المفهوم من عجز الآية عين المفهوم من صدرها، وإذا قلنا: إن المقصود بالهدايتين أمر واحد فهو الهداية الناتجة عن سريان النور الذي أودعه الله تعالى قلب سيدنا محمد ﷺ إلى القلوب المستعدة للتلقي، وإنما صحت نسبته إلى النبي ﷺ لأمرين:

الأول: من حيث انه الواسطة بين الله والخلق، وذلك لان قلوب ما سوى الأنبياء، لما كانت عاجزة عن تلقي الكلام من الله تعالى مباشرة، فهي اعجز عن تلقي الأنوار الإلهية من غير واسطة.

والآخر: لبيان أن اتباعهم مُسَبَبٌ لسريان النور في قلوبهم، ويكون معنى قوله تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أن اتباعهم له ﷺ ناشئ عن سريان النور في قلوبهم فإضافة الإتباع إلى النور إضافة مُسَبَبٍ إلى سببه.

وبناء على هذا نقول: إن الشيء الموحى به إلى النبي ﷺ المعبر عنه بالروح هو غير القرآن وهو الذي جعله الله نورا وهو من عالم الأمر كما هو شأن الروح أسكنه الله تعالى قلب سيدنا محمد ﷺ فإذا أراد الله هداية إنسان للترقي في مراتب الإحسان، مده الله ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[٣] أي الله يجتلبُ إلى ما تدعُوهم إليهِ مَنْ يشاءُ أنْ يجتبَيُه إليهِ، وهُو من صَرفَ اختيارَهُ إلى ما دُعِيَ إليه كما ينبئ عنه قولُه تعالى: ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أي يُقبلُ إليه حيثُ يمدُّه بالتوفيق والألطافِ[٤].

---

١ – سورة البقرة، الآية: ٨٧.

٢ – ينظر تفسير ابن عجيبة: ٥/ ٤٥٠.

٣ – سورة الشورى، الاية: ١٣

٤ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٨/ ٢٦.

بواسطة ذلك النور الساري من قلب النبي ﷺ إلى قلبه فينشرح صدره للإيمان بسبب ذلك النور، ومن هنا كانت محبة النبي ﷺ من لوازم كمال الإيمان لأنها السبيل الوحيد لتواصل القلوب الذي ينتج عنه سريان ذلك النور.

ولما نزلت هذه الآية: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾[١] سئل ﷺ عن الشرح المذكور، فقال: (نور يقذفه الله في القلب، فإذا دخل النور القلب انشرح وانفسح) قيل: وهل لذلك علامة؟ قال: (نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله.)[٢]، فالحديث يدل على أن هذه الأحوال – التجافي والإنابة – والأعمال المعبر عنها بالاستعداد للموت ناتجة عن دخول النور في القلب.

ومما يدل على هذا الفهم ما روي عن أنس ﷺ قال: ما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا.[٣] فهنا إشارة إلى أنهم كانوا يتلقون منه ﷺ

النتائج

١ – إن إطلاق لفظ الميثاق على العهد المأخوذ على الأنبياء، ينبئ بأهمية مضمون ذلك العهد، من حيث صعوبة الوفاء به، وخطورة ما يترتب على تضييعه.

٢ – أن إيتاء الأنبياء الكتاب والحكمة هو السبب الموجب لإيمانهم به ﷺ،

٣ – إن إيمان الأنبياء عليهم السلام بالنبي ﷺ ونصرتهم له واجب عليهم في الوقت الذي آتاهم الله فيه الكتاب والحكمة.

٤ – إن جميع الأنبياء بما فيهم سيدنا ادم عليهم الصلاة والسلام، مأخوذ عليهم الميثاق والكل مطالب بمقتضاه، لان (أل) في النبيين جنسية.

٥ – إن اخذ العهد على الأنبياء فيه من التعظيم له ﷺ والتفخيم ورفعة الشأن والتنويه بالذكر إلى ما لا ينبغي إلا لذلك الجناب.

٦ – لا شك بامتثال الأنبياء والمؤمنين من أممهم للأمر بنصرته.

---

١ – سورة الزمر، جزء من الآية:٢٢

٢ – المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض – ط/١، ١٤٠٩هـ: ٧/٧٧.

٣ – هذا جزء من حديث تمامه: لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء وقال ما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا) مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، الناشر: مؤسسة قرطبة – القاهرة –: ٣/ ٢٦٨، برقم ١٣٨٥٧، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير جعفر بن سليمان – وهو الضبعي – فمن رجال مسلم

٧ – الحكم بنصر النبي ﷺ من الله تعالى، غير مشروط بتوافر أسباب، بل بالمدد الإلهي والتأييد بالملائكة، ولم يُشترط الأتباع يوما لنصرة النبي ﷺ، إنما متابعة الأمة للنبي ﷺ، شرط لنصرة المؤمنين وليس العكس.

٨ - نصرة المؤمنين للنبي ﷺ امتثال ديانة لا تحقيق غاية.

٩ – إن نصرة الأنبياء عليهم السلام ومن مضى من أممهم لنبينا ﷺ تتمثل في أمرين: أولهما: قلبيٌ وهو اعتقاد أفضليته ومحبته وربط القلوب به ﷺ والآخر: جسدي وهو أن يبلغ السابقُ منهم اللاحقَ بمضمون العهد المأخوذ عليهم.

١٠ - إن أمر الأنبياء وأممهم بالإيمان به، وتعظيمه، والاستعداد النفسي لمتابعته، وخدمته بالتبشير بدينه، واخذ المواثيق على ذلك، ويتفرع عن ذلك، محبته، وربط القلوب به ﷺ، إعلان بمزيد بفضله ﷺ.

١١ - إن النبي ﷺ هو السبب في التخفيف على أمته في الأحكام.

١٢ - إن أسباب الفلاح تكمن في مراعاة عظيم منزلة النبي ﷺ وكرامته عند الله.

١٣ – أن المؤمن في اشد العبادات انقطاعا إلى الله لا ينبغي أن يغيب عنه إمامه ووسيلته إلى الله (النبي ﷺ).

١٤ - إن الشيء الموحى به إلى النبي ﷺ المعبر عنه بالروح هو غير القرآن، وهو من عالم الأمر وقد جعله الله نورا، وأسكنه قلب سيدنا محمد ﷺ به يهدي الله من شاء هدايته للترقي في مراتب الإحسان.

المصادر والمراجع

١- القران الكريم.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تأليف: أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣- بردة المديح: للإمام شرف الدين أبي عبد الله محمد البوصيري، مط: الوسام – بغداد – ١٩٨٣م،:

٤- التبيان في تفسير القرآن المؤلف: شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي:

٥- تفسير البحر المحيط، تأليف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار النشر: دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت – ١٤٢٢هـ –٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: د.زكريا عبد المجيد النوقي: د.أحمد النجولي الجمل:

٦- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)،المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة– الطبعة: ١٤١٩ هـ

٧- تفسير البيضاوي، المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، دار النشر: دار الفكر – بيروت.
٨- : السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ)، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، عام النشر: ١٢٨٥ هـ
٩- تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ) تحقيق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر- الطبعة الثالثة:
١٠- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، تأليف: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت –، الطبعة: الأولى١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.
١١- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠ م.
١٢- الجامع الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق الناشر: دار ابن كثير، اليمامة – بيروت – الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ – ١٩٨٧:.
١٣- دلائل النبوة
١٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت-:
١٥- سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد المؤلف: محمد بن يوسف الصالحي الشامي:
١٦- السيرة النبوية لابن هشام، تأليف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار النشر: دار الجيل – بيروت –، الطبعة: الأولى١٤١١هـ،:
١٧- شرح الحكم العطائية عبد المجيد الشرنوبي الأزهري
١٨- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.
١٩- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣.
٢٠- الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع ابو عبد الله البصري الزهري، دار صادر – بيروت –: ٢/ ١٥٢، وفتح الباري شرح صحيح البخاري: احمد بن علي بن حجر ابو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب، الناشر: دار المعرفة – بيروت –:
٢١- العقيدة الإسلامية ومذاهبها: د. قحطان عبد الرحمن الدوري، ط/ الأولى ٢٠١١م، مطبعة ناشرون – لبنان –:

٢٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب الناشر: دار المعرفة – بيروت، (١٣٧٩هـ):
٢٣- الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر:
٢٤- الفصول في سيرة الرسول ﷺ: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء:
٢٥- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ:
٢٦- الكتاب: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م:
٢٧- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ:
٢٨- اللامات: لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، (المتوفى: ٣٣٧هـ) تحقيق: مازن المبارك، الناشر: دار الفكر – دمشق–، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م:
٢٩- لسان العرب: ابن منظور تحقيق: عبد الله علي الكبير + محمد أحمد حسب الله + هاشم محمد الشاذلي دار النشر: دار المعارف – القاهرة–:
٣٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.
٣١- مسند أبي يعلى: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار النشر: دار المأمون للتراث – دمشق –، الطبعة: الأولى١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م:
٣٢- مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، الناشر: مؤسسة قرطبة – القاهرة، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها:
٣٣- مشكاة المصابيح للعلامة الشيخ ولي الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي مع شرحه مراعاة المفاتيح للشيخ أبي الحسن عبيد الله بن العلامة محمد عبد السلام المباركفوري حفظه الله .
٣٤- مشكل إعراب القرآن: مكي بن أبي طالب القيسي أبو محمد الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت– الطبعة الثانية، ١٤٠٥، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن:
٣٥- المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض – ط/١، ١٤٠٩هـ،:
٣٦- معاني القرآن: أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: ٣٣٨هـ) المحقق: محمد علي الصابوني الناشر: جامعة أم القرى – مكة المرمة الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ:
٣٧- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ) المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر الطبعة: الأولى:

٣٨- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ) تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة ١٩٨٥م: